اللعنــة

«أتعلم أن هنالك مصادفات غريبة في هذه الحياة؟» قال محدثي الدكتور جمال محرز وهو يحدقني بنظرات حالمة، كان رجلاً قوي البنية جامد التقاطيع ذا حاجبين كثيفَيْنِ وشفتين غليظتين.

كنا جالسين على طرف بركة السباحة في فندق عمر الخيام في القاهرة قرب جسر 26 يوليو الذي يمتد فوق نهر النيل، وكنا نحتسي بعض المشروبات ونتحدث عن لعنة الفراعنة التي كثرت أقوال الصحافة عنها، التي قيل: إنَّها تنصب على أي شخص يتورط في اكتشاف مقبرة الفرعون (توت عنخ أمون) وربما المقابر والمومياء الأخرى أيضاً.

وحيث إنَّ الدكتور محرزاً هذا هو المدير العام لمصلحة الآثار القديمة في المتحف المصري في القاهرة فإنه هو المسؤول عن تلك البناية التي تضم حوالي 100 ألف قطعة من الكنوز التي يرجع عهدها إلى آلاف السنين من تاريخ مصر. فهنالك الخنافس الصغيرة والتماثيل الحجرية البارزة للفراعنة العظام. وفي الغرفة رقم /25/ من الطابق العلوي هنالك عشرون مومياء مرتبة طبقاً للعمر والجنس بحيث وضع الرجال أولاً ثم النساء وكلها معروضة في توابيت زجاجية يراها الجمهور الذي يدفع النقود. وبالمناسبة هنالك أناس لا يستطيعون أن يتحملوا منظر المومياء المبتسمة بأسنانها البارزة. فهؤلاء الناس يندفعون خارج الغرفة وهم يتصببون عرقاً.

بادرته بالسؤال: «وهكذا فأنت بالحقيقة لست متأكداً أن هنالك لعنة؟».

تردد الدكتور محرز قبل أن يجيب بوضوح، فقد كان يزن جوابه بعناية. ثم قال بلهجة انكليزية قاهرية خارجة من الحلق يتكلمها معظم علماء الآثار المصريين الذين يتدربون في جامعات أكسفورد وكامبردج: «إذا أضفت جميع تلك الوفيات الغامضة فمن الممكن أن يكون تفكيرك صحيحاً من هذه الناحية لاسيما أن اللعنات كثيرة وبارزة في التاريخ المصري ولكني. . . . وهنا ابتسم الدكتور محرز ابتسامة صفراوية، قائلاً: «أنا ببساطة لا أؤمن بهذا. انظروا إلي، فأنا منهمك في قبور ومومياء الفراعنة طيلة حياتي ومع ذلك فأنا برهان حي على أن كل هذه اللعنات هي من قبيل المصادفات». لكنه بعد أربعةِ أسابيع من حديثنا هذا وجد الدكتور محرز هذا ميتاً وهو في الثانية والخمسين من العمر، وقد عزا الأطباء سبب موته لانهيار في جهاز دوران الدم في جسمه.

والظرف الغريب في وفاة الدكتور محرز أنه مات في نفس اليوم الذي نزع فيه قناع توت عنخ أمون الذهبي للمرة الثانية، في ذلك اليوم تحرك ناقلو الآثار إلى المتحَف في شارع ماريتا، وحزموا الجواهر والحلي فقناع توت عنخ أمون كان مؤمناً بمبلغ / 55/ مليون دولار، ثم نقل هذا الكنز على قاذفتي قنابل من القوة الجوية الملكية البريطانية جواً إلى لندن حيث أصبح جزءاً مما عرض لتخليد ذكرى مرور خمسين عاماً لاكتشاف مقبرة توت عنخ أمون على يد عالمين إنكليزيين هما: هوارد كارتر، واللورد كارنرفون.

ويعتبر توت عنخ أمون الشخصية الرئيسية في اللعنة التي كلفت إزهاق أرواح حوالي ستة وثلاثين رجلاً على الأقل من العلماء وعلماء الآثار والباحثين، حكم هذا الفرعون حوالي تسع سنوات فقط من عام 1358 ـ 1349ق. م، ويعتبر نسبياً ذا أهمية تاريخية متواضعة، ومع أنه كان يرأس الثورة المعاكسة التي أطاحت بفكرة التوحيد التي قدمها عمُّه الفرعون أخناتون، إلا أنه كان الواجهة لبعض الكهنة المتآمرين.

ولكن أهميته الحقيقية تكمن في اكتشاف مقبرتُه مؤخراً، والتي تمتاز عن مقابر الفراعنة الآخرين بأنها لم تتعرض للنهب والسلب، والتي تمتاز أيضاً بسلسلة من

الوفيات الغامضة التي تبعت التنقيب عن المقبرة، وعندها بدأت لعنة الفراعنة تثير اهتمام العلماء لأول مرة.

حياة اللورد كارنر فون:

كان علماء الآثار يموتون بأشكال غامضة من قبل، وكانت وفاتهم تعتبر قضاء وقدراً حتى قام اللورد كارنرفون بالمساعدة في فتح قبر توت عنخ أمون، ومات في نيسان عام 1923 وسط ظروف غامضة.

ما الذي دفع لورداً إنكليزياً ثرياً أن يتعب نفسه بالمومياء وبالكنوز المدفونة؟.

إن حياة هذا الرجل الأولى تزودنا ببعض المعلومات الموثوقة.

ولد كارنر فون في عام 1866 ونشأ طفلاً نموذجياً، فقد قضى حياته الأولى في ضيعة يملكها أبواه، وبعد دراسة منزلية خاصة دخل كلية إيتون ثم كلية ترينتي ثم جامعة كامبردج، حتى أصبح في شبابه مشهوراً بالإضافة إلى ولعه بركوب الخيل ووضعه ثعباناً في درجه المدرسي خلال فصل دراسي كامل.

توفي والده وهو في الثالثة والعشرين من عمره وبذلك أصبح المسؤول عن إدارة ضياع عائلته الكثيرة الواسعة، وبدأ ينحرف إلى حياة الشاب المستهتر المنغمس في الملذات. كما فتن برياضة قيادة السيارات. إذ ساهم في نشوء سباق السيارات وتأسيسه. فقد كان يملك العديد منها في فرنسا قبل أن يسْمَح للسيارات بالسير قانونياً في إنكلترا.

والحقيقة أن قصة تحوله من هاوي سيارات إلى عالم بالآثار المصرية أدت إلى اشتراكه في اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون، الأمر الذي انتهى بموته بسبب تلك اللعنة الفرعونية، إنّ هذا، لعمري، من سخريات القدر فضلاً عن أنه يحتاج إلى كثير من التوضيح والتفسير.

لقد لاحظت أخته بأن هواية السيارات كانت نوعاً من الطيش الذي أوصله إلى إحدى نزعاته الحاسمة.

ومع أن كارتر فون كان مشهوراً بلامبالاته؛ إلا أنه بالحقيقة كان متحفظاً، ويملك شيئاً من الحكمة تكفي لعدم إيقاع نفسه في مواطن الخطر.

وعندما عاتبه كاتب هذه السطور بسبب سعيه وراء الخطر دون أي مبرر أجاب قائلاً: «هل تظن أني أحمق؟ ففي قيادة السيارات لا يكمن الخطر إلا في المنعطفات. ولم أكن لأدور المنعطفات بسرعة جنونية».

وقد كان قوله هذا صحيحاً، ولكن أعظم الخطط تدبيراً يمكن أن تفشل إذا أغمض الإنسان عينيه قليلاً، فقد كانت الطريق التي سار عليها إلى حتفه مستقيمة ولا منعطفات فيها.

لقد كانت تلك الرحلة إلى ألمانيا هي التي سببت له تلك المصيبة، فبينما كان يسوق سيارته في طريق خالية ومعه سائق سيارته المخلص الذي رافقه مدة ثمانية وعشرين عاماً إذا بالسيارة تنقلب عندما صادف أمامه حفرة عميقة لم يتنبه لها، فاحترقت رجلاه وأصبح وجهه مشوهاً، كما كسر معصمه، وأصاب حنكه وصدغه بعض الأضرار، لذا أجريت له عدة عمليات نتيجة لذلك، ولكن هذه العمليات لم تفلح في استعادة صحته كما كانت، فقد أصابته متاعب في التنفس وخصوصاً في طقس الشتاء الإنكليزي الرطب، ولكي ينجو من هذه الرطوبة قرر أن يسافر إلى مصر خلال الأشهر الرطبة، وفعلاً بدأ رحلاته إلى مصر ابتداء من عام 1903 وما بعدها، فالرطوبة قلما ترتفع فوق °40 في مصر، ولذلك فالمناخ هناك مناسب لاتقاء ألم المرض.

وكان من الطبيعي لرجل متمكن ومتضلع بالفنون مجبر أن يقضي وقتاً طويلاً في مصر، نعم فمن الطبيعي جداً أن تنشأ لديه اهتمامات بعلم الآثار وعلى هذا فقد بدأ كارنر فون بالحفريات في ثالث فصل شتاء أقام به في مصر. ولكن مجهوداته لم تثمر أي نتيجة في أول الأمر ولهذا فقد طلب نصيحة أحد أصدقائه السير غاستون ماسبيرو الذي كان محافظاً لمتحف القاهرة فما كان من ماسبيرو هذا إلا أن عرفه على هوارد كارتر الذي كان رساماً إنكليزياً ومهتماً بالآثار أقام في مصر منذ عام 1890 وكانت أعماله تتراوح بين النجاح والإخفاق ولكنه بذلك حصل على معرفة عظيمة

وإن بقيت حالته المادية ضعيفة. ثم استطاع أن يكتشف مقبرتين في وادي الملوك غرب الأقصر لصالح ثيودور دافس وهو محامٍ أميركي متقاعد كان يتسكع في مصر منذ عام 1880. وبعد عدة سنوات من البحث عن الكنوز المخبأة أوضح كارتر وكارنرفون عما وجداه بفخر واعتزاز، وذلك في كتاب سمياه (خمس سنوات من الاستكشافات في طيبة) وبعد ذلك استمرا في الحفريات. كان كارتر متأكداً أن هنالك مقبرة منسيَّة لفرعون ولابدَّ أَنْ تكون مخفية في مكان ما في وادي الملوك. وكان هذا الاعتقاد مبنياً على شهادة (جميس هنري براستد) وهو عالم آثار أميركي شهير.

وفي خلال موسم الحفر لعام 1907 ـ 1908 وجد عمال دافس مخبأ به جرار فخارية تحتوي على معدات جنائزية تتألف بصورة رئيسية من لفائف قماش الكتان، ولكنها تحتوي أشياء كثيرة تستعمل في المواكب الجنائزية.

ولم يهتم دافس بهذا الاكتشاف الذي كان سيبقى طي النسيان لولا أن انتبه أحد العاملين في متحف العاصمة إلى أن الختم المنقوش على أعناق الجرار وعلى بعض قطع الكتان كان يحوي اسم توت عنخ أمون.

وقد اكتشف دافس أيضاً حفرة قبر فيها بقايا صندوق خشبي يحوي على صحاف صغيرة ذهبية منقوش عليها اسم توت عنخ أمون، وقد قرر دافس أنه قد اكتشف مقر الراحة الأبدية لتوت عنخ أمون، ولكن كارتر كان يشك في هذا القول فإن ملكاً لا يمكن أن يدفن في قبر متواضع وخصوصاً في عهد الأسرة الثامنة عشرة العظيمة، أضف إلى ذلك أن كومة عظيمة من الصخور قد نصبت تكريماً لحكام المملكة المتوسطة، ولم يكن هنالك أي سبب معقول لوضع توت عنخ أمون في قبر حقير كهذا.

إذن أين قبر توت عنخ أمون؟.

كان دافس قد قام بكثير من الحفريات في نفس المنطقة، حيث كان كارتر يشك في وجود المقابر الملكية فيها ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف العمل مؤقتاً، ومضت ثلاث سنوات قبل أن تبدأ المغامرة العظيمة في وادي الملوك.

وحتى ذلك الوقت لم يكن هنالك أحد قد حفظ سجلاً عمن سبق في الحفر، وأين كانت الحفريات ومتى ولأي غرض تمت.

كان كارتر قد رسم خارطة للمكان وابتداء من عام 1917 أخذ يجوب المنطقة بشكل مبرمج قدماً بعد قدم. أزيلت أكوام ضخمة من الطبقات الترابية التي كانت قد تراكمت خلال سنوات الحفريات السابقة ومع ذلك لم يعثر المنقبون على شيء، وفي ربيع عام 1922 كان كارنرفون قد بدأ يفكر بترك العمل عندما طلب كارتر إعطاءه فرصة أخيرة واحدة. وأخبر مموله (كارنرفون) أنه لا تزال هناك بقعة مثلثة أسفل مقبرة رعمسيس السادس ـ التي أوقف التنقيب فيها نظراً لأن (حفرها) سوف يوقف زيارة السواح لمقبرة رعمسيس. وقد لاحظ كارتر وجود بقايا أسس من الأكواخ الحجرية البسيطة التي كان من الواضح أن بعض العمال القدماء قد بنوها. ولهذا قرر إزالتها أولاً.

وكانت هذه الأسس مؤلفة من ألواح حجر الصوان وفي الماضي كان وجود مثل هذه الألواح دليلاً أكيداً على عظمة المقبرة.

مضت سنوات، وكان هذا الرجلان يفتشان عن شيء لم يكونا متأكدين من وجوده، نعم ولمدة ست سنوات كانا يذوقان أمرَّ العذاب كل يوم خوفاً من أن تكون نتيجة المغامرة بأجمعها فشلاً ذريعاً. طيلة هذه السنوات الست كانا يساقان في عملهما بقوة الاستمرار وفجأة حدثت المعجزة في بضعة أسابيع:

في 28 تشرين الأول عام 1922 توجه كارتر إلى الأقصر ولم يكن معه كارنرفون واستأجر فريقاً من الحفارين.

وفي الأول من تشرين الثاني عام 1922 بدأ كارتر حفريات جديدة في وادي الملوك ابتداءً من الزاوية الشمالية لقبر رعمسيس السادس وقد حفر خندقاً يمتد جنوباً تحت الأسس الصوانية للأكواخ التي كان قد اكتشفها أولاً.

وفي 4 تشرين الثاني عام 1922 ركب كارتر بغلته كما كان يفعل كل يوم متوجهاً إلى موقع الحفريات وكان مندهشاً لذلك الهدوء غير العادي، وهنا ركض رئيس العمال نحوه قائلاً بانفعال:

«يا سيدي لقد عثرنا على درجة مهدمة داخل الصخور تحت أساس الكوخ الأول».

وفي الخامس من تشرين الثاني عام 1922 تم اكتشاف أربع درجات ولم يكن هناك أدنى شك في أن هذه الدرجات تؤدي إلى مقبرة مدفونة في الصخور. ولكن هل هذه المقبرة هي مقبرة فرعون؟. وهل سبقهم إليها لصوص المقابر؟ وفي مساء اليوم الثاني عشر كان قد كشف عن اثنتي عشرة درجة أخرى فظهرت بوابة حجرية مختومة بختم ظهر عليه صورة ابن آوى، وتسعة سجناء مصورين بأسلوب معين. وهذا هو ختم مدينة الأموات في وادي الملوك وكان يبدو أن المقبرة قد نهبت.

وفي 6 تشرين الثاني 1922، رجع كارتر إلى الأقصر وأرسل برقية إلى مموله (لورد كارنرفون في إنكلترا هذا نصها: «وأخيراً اكتشفنا اكتشافاً رائعاً في الوادي، مقبرة عظيمة والأختام لم تمس. أوقفنا العمل حتى وصولك، تهانينا»).

وفي 8 تشرين الثاني 1922 أرسل كارنرفون برقيتين متتاليتين:

«قادم حالاً، إذا أمكنني ذلك، سأكون في الإسكندريَّة في العشرين من الشهر».

وفي 23 تشرين الثاني، وصل كارنرفون إلى الأقصر تصحبه ابنته.

وفي 24 تشرين الثاني: يفتح مدخل المقبرة الذي كان قد أعيد دفنه بالأنقاض الأصلية بعد أن وضعت شرذمة من الجيش المصري لحراستها.

وفي 25 تشرين الثاني صورت الأختام فوتوغرافياً وكسرت، فظهر دهليز ينحدر إلى الداخل حيث انتشرت جرار من المرمر مبعثرة وقطع فضية مختومة أيضاً تكاد تملأ الدهليز. وظهر كما لو أن المقبرة قد انتهكت حرمتها ونهبت ثم ختمت من جديد.

وفي 26 تشرين الثاني 1922 وجد الحفارون خلف البوابة الحجرية على مسافة ثلاثين قدماً بوابة ثانية. وبالإضافة لأختام مدينة الموتى وجدت شارة السلطة للفرعون توت عنخ أمون.

وقد وصف كارتر هذه الساعات الأخيرة في كتابه (مقبرة توت عنخ أمون) كما يلي: «ببطء وبطء شديد ـ كما كان يبدو لنا ونحن نراقب إزالة بقايا أنقاض الدهليز التي سدت الجزء الأسفل من المدخل حتى بدا الباب لنا بأكمله ماثلاً أمامنا، لقد أزفت اللحظة الحاسمة وبيدين مرتجفتين نقبت ثغرة صغيرة دقيقة في الزاوية العلوية اليسرى.

وفي الظلام الدامس والفراغ المطبق بالقدر الذي استطاعت عصاي الحديدية الوصول إليه، ظهر لنا أن كل ما وراء هذا كان فارغاً وليس مملوءاً كما كانت الحال في الممر الذي كنا قد نظفناه لتوِّنا وقد استخدمنا أضواء الشموع كاختبارات احتياطية ضد ما يمكن أن يوجد من غازات مؤذية.

وبعد أن وسعنا الثقب قليلاً أدخلت الشمعة ونظرت إلى الداخل ـ وكان اللورد كارنرفون وابنته وأحد مساعديه واقفين إلى جانبي بقلق ينتظرون سماع النطق بالحكم ـ ولأول وهلة لم أستطع أن أرى شيئاً فقد كان الهواء الساخن ينطلق من الغرفة أمامي ويسبب الرجرجة في ضوء الشمعة ولكن في الحال وبعد أن اعتادت عيناي الضوء ببطء بدت تفاصيل الغرفة في الداخل بما فيها من الحيوانات الغريبة والتماثيل والذهب وفي كل مكان كان وميض الذهب الآسر يشع. مضت لحظة وكأنها الأبدية على أولئك الواقفين بجانبي فقد كنت قد أصبت بالبكم من الدهشة وكان كارنرفون أول من يسأل: هل يمكنك رؤية أي شيء؟.

نعم، إنني أرى أشياء رائعة.

لقد أظهر ذلك الضوء الرجراج ما لم تره عين بشرية من خمسة وثلاثين قرناً. إذ كانت أجمل أشياء استخرجها علماء الآثار من الأرض عبر التاريخ البشري وأثمنها، كان هنالك كأس بشكل زهرة اللوتس من المرمر نصف الشفاف وكومة

مبعثرة من العربات الملكية المقلوبة تلمع بما رصعت به من الذهب الخالص، وكذا تمثالان بالحجم الطبيعي لملك يتشح بالسواد يواجهان بعضهما كأنهما حارسان وهما يرتديان تنورتين مذهبتين وينتعلان نعلين مذهبين وهما مسلحان بالصولجان وعصا السلطة وعلى جبهتيهما الثعبان الواقي المقدس وهنالك أيضاً ثلاثة خوانات مذهبة كبيرة وأضرحة غريبة مجللة بالسواد وعرش مرصع بالذهب ولم يكن هنالك أي أثر لتابوت أو مومياء. ولكن كان كل هذا في غرفة أمامية يتبعها متاهة أتوقع أن تكون مترعة بالكنوز التي لا تنفَد».

ولقد اتفق كارتر وكارنرفون وبدون أن يريا ما ينتظرهما في مقاصير المقبرة الأخرى، على أن هذا هو أعظم كنز أثري في التاريخ.

لقد أحصى كارتر كل ما وجده باعتباره عالم آثار مسؤول، نعم أحصاه في أدق التفاصيل. ثم أقفل الفتحة وأوكل لحراسة المقبرة كتيبة من الجند ليلاً ونهاراً. ثم أمر بوضع باب حديدي خاص جلب من القاهرة إلى الأقصر بالقطار لكنه فكر أخيراً بأن كل هذه الإجراءات غير مأمونة بشكل كاف فأمر بردم المدخل بالأنقاض مرة ثانية.

وفي 5 كانون الأول ذهب اللورد كارنرفون وابنته إلى انكلترة لأداء بعض الالتزامات وللاستعداد لمفاجأة الاكتشاف ثم رجع إلى مصر في أوائل شباط 1923.

اللقية المشؤومة:

لم يضع كارتر الأسابيع التي مرت سدى فقد أخذ يجمع كل خبير استطاع أن يجده: (خبراء باللغة الهيروغليفية، خبراء أختام، خبراء كيمياء وغيرهم).

. . . بدؤوا أولاً: بتحطيم الحائط الذي يوصل إلى الغرفة الأمامية، وبذلك استطاعوا فحصها بشكل أكثر دقة من فحص كارتر لها.

في 26 تشرين الثاني أظهرت الفحوص الدقيقة أن القبر قد نهب جزئياً ولكن اللصوص كانوا قد فتحوا فتحات صغيرة جداً خلال الجدران الصخرية، وبالتالي فقد استطاعوا نهب أشياء صغيرة قليلة جداً من الكنز، وفوق ذلك فإن عملية النهب لابد

أن تكون قد حدثت بعد فترة قصيرة من دفن الفرعـون. وإلا فـلا مـبرر لظـاهرة إعـادة ترميم الأختام المكسورة.

لم يكن من المستطاع كتمان أمر هـذا الاكتشـاف طويـلاً فقـد قـرر كـارنرفون أن يعطي جريدة (لندن تايمس) حقـوق نشـر القصـة رسـمياً ولكـن معظـم صحـف العـالم بدأت بالزحف لتقصي الأخبـار والتفـاصيل. ولـذا فقـد شـددت الحراسـة على المقبرة حالما انتشرت الأخبار بحجة أن الحفريات سوف تستأنف وقد علق كارتر وقتها بقوله: «في الوقت الذي انتهت به الأبحاث في الغرفة الأمامية كانت أعصابنا قد أصبحت في حالة خطيرة من التوتر والثورة».

لقد أخذت صور فوتوغرافية لكل موجودات الغرفة بعـد أن اتخـذت الترتيبـات ووضعت المخططات اللازمة لصيانتها وحفظها، فقد أنشئ مخبر في قبر فارغ، وعلى أثر ذلك ورد سيل من الرسائل والبرقيات إلى موقع الحفريات تتضمـن نصـائح لصيانـة وحفـظ المكتشفـات كمـا تحتـوي طلبـات لإرسـال هدايا تذكاريـة (فقـد كتـب أحدهـم يقول: «سأكون شاكراً لو أرسلتم لي بعض حبات من الرمل». أما التهاني فكثيرة ولا تسل عن عروض للمساعدة من كل فج وصوب حتى إن أقرباء مستجدّين قـد ظـهروا فجأة واكتشفوا قرابتهم لنا».

فقـد كتـب أحدهـم: «حقـاً يجب أن تكـون ابـن عمنـا الـذي كـان يعيـش فـي كبروويل في عام 1893 والذي لم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك العهد».

ولكن الأشخاص الذين كانوا يعملون في مواقع العمل قـل نشـاطهم وضعفـت همتهم لأنهم في الحقيقة - أصبحوا عصبيين بسبب عثورهم علـى رقيـم خزفي وجـده كارتر في الغرفة الأمامية يقول: «إن الموت سوف يقضي علـى أي شـخص يحـاول أن يزعج هدوء الفرعون».

والحقيقـة أنـه لا كـارتر ولا جـاردنر ولا أي واحـد مـن العلمـاء الحـاضرين كـان يخشى تلك اللعنة أو يفكر بها جدياً (ولكن خشيتهم كانت مـن تـأثُّر العمـال المصريـين

بها ولما كان الاعتماد الكلي على العمال الوطنيين، لذلك فقد محي هذا النص من السجل المكتوب لاكتشاف المقبرة وحتى الرقيم نفسه اختفى من المجموعة ولكنه لم يختف من ذاكرة أولئك الذين قرؤوه. (لقد حفظ الجميع نص تلك اللعنة في كل مكان ولكنه لم يصور واعتبر مفقوداً).

والخطير في الأمر أن اللعنة وجدت مرة ثانية في شكل آخر نوعاً ما وذلك عندما وجد مكتوباً على ظهر أحد التماثيل: «إنني أنا الذي أطرد لصوص القبر بلهب الصحراء. إنني أنا حامي قبر توت عنخ أمون».

وقد اكتشف هذا التمثال السحري في الغرفة الرئيسية للقبر وعندما نظف هذا التمثال لم يعد المنقبون بحاجة للخوف من قلق مساعديهم المصريين فقد وصل هؤلاء إلى الهدف.

وبعكس الثقافات السامية فإن التوراة تعج باللعنات إلاّ أن اللعنات كانت نادرة في مصر القديمة والشخص الوحيد الذي كان يلفظ اللعنات هو الفرعون الذي كان يتكلم بشرعية إلهية، فعلاً في خطاب العرش الذي قدمه الملك تحتمس الأول إلى ابنته حتشبسوت قال: «إن أولئك الذي يلعنون ملكهم سوف يموتون». ثم إن سجلات المحاكمات في قضية مؤامرات الحريم ضد رعمسيس الثالث تظهر أنه قبل المحاكمة كان المتهمون يلعنون. وهذا كان ينزع عنهم الحصانة الإلهية وتطبع عليهم سمة أعداء الآلهة. ويعتبر كجزء من هذه التقاليد أن ينقش اسم الشخص المتهم على جرة فخارية ثم تحطم هذه الجرّة. وهذه عبارة عن إحدى طقوس الحرمان.

وإن رقم أو (ألواح) اللعنات كالرقيم الذي اختفى من مقبرة توت عنخ أمون كلها تنوه بأن الآلهة هي البادئة باللعنات كلعنة أوزيريس، وسوكاريس وهو الإله العظيم سيد أبيدوس ولعنة إيزيس الآلهة العظمى.

وقد وجد المفتش العام للآثار في مصر في قبر اكتشفه قرب هرم ميدوم، وجد لعنة في رقيّم في الغرفة الأمامية كتب فيها: «إن روح الموتى سوف تدق عنق اللص

الخطير كما يدق عنق الإِوزّة». وقد أشار الرقيم إلى روح شخص واحد ميت فقط ولكن الموظف وجد جثتين في المقصورة إحداهما محنطة والأخرى ليست محنطة. فالجثة الثانية كانت ضحية اللعنة. فقد قتل السارق بواسطة حجر سقط عليه من السقف في اللحظة التي مدّ بها يده للاستيلاء على مجوهرات المومياء.

لماذا سقط الحجر؟ لقد كان المصريون القدماء شعباً متديناً يؤمن بالمعجزات والأشباح والأرواح فأولئك الذين كانوا يفهمون ويستطيعون التنبؤ بفصول نهر النيل كانوا يظهرون كأنهم آلهة بالنسبة لإخوانهم البسطاء الذين لم يكونوا يعتبرون كعلماء. ولما كان الفراعنة يحيطون أنفسهم بالرجال الحكماء كانوا أول من يعلم موعد حلول موسم فيضان النيل وري الأراضي.

ولكن الإيمان بالآلهة والأشباح أخذ يضعف حالما انتشرت المعارف العلمية وحتى الناس العاديون أصبحوا يعرفون شيئاً عن التقويم والرياضيات والهندسة والفلك والري الصناعي، وفي الحقيقة لقد بدأت إزالة القدسية عن الملوك حوالي نهاية المملكة القديمة، عندما كان خوفو وتيتي لا يزالان يعتبران فوق البشر وذلك حتى اختفت الآلهة أخيراً عن عروشها الذهبية.

وكنتيجة لهذا فإن المصريين المتنورين ـ مع أنهم كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت لم يعودوا مقتنعين بالقدرة الكاملة للموتى وهكذا كان الكهنة والسحرة يستعملون المعارف التقنية لصيانة قوتهم والخوف والرهبة التي كانت اللعنات توحي بها. وهكذا فإنه ليس من قبيل الصدفة أن يسقط حجر من سقف قبو القبر عندما تلمس المومياء وإنما كان ذلك جزءاً من فخ بسيط محكم ومؤثر لإبعاد لصوص القبور عن الجثة المرتدية أفخر الكساء.

ولقد بذلت مجهودات أكبر لتأمين مثوى الفرعون الأخير مما بذل للمواطن العادي وبعكس الأشخاص العاديين كان باستطاعة الفرعون أن يخطط بذخ لأجل دفنه وأن يتأكد أن جسمه سوف يكون محاطاً بالأبهة المطلوبة وأن يحنط تحنيطاً مناسباً يبقى للذرية.

وإذا كانت لعنة الفراعنة صادقة بالنسبة لتوت عنخ أمون ـ وهو ملك لم يكن بوسعه أن يعمل الكثير بالنسبة لمثواه الأخير ـ إلا أن هناك تفسيراً بسيطاً، فالملك توت عنخ أمون ودفنه كان قضية تهم الكهنة والسحرة. فقد كان في الثامنة عشرة فقط عندما مات وإنَّ نهايته كما سنرى كانت نهاية عنيفة مؤثرة.

فتح الباب المختوم، ولكن كل ما ذكرناه لم يكن معروفاً في يوم 17 شباط عام 1923 عندما كان هورد كارتر واللورد كارنرفون مستعدَّيْنِ لفتح المقصورة الرئيسية لقبر توت عنخ أمون.

لم يكن أي واحد من العشرين رجلاً من فرقة التنقيب يعلم أنه سوف يجد مومياء الفرعون في تلك المقصورة وذلك عندما تجمعوا في الساعة الثانية بعد الظهر في ذلك اليوم الدافئ من أيام شباط، في دهليز المقبرة وبالتأكيد لم يكن أحد يشك أن ثلاثة عشر رجلاً منهم سوف يموتون في فترة قليلة من الزمن.

هنا يصف كارتر المنظر بقوله:

كان يوم الجمعة السابع عشر من الشهر وهو اليوم المحدد، وفي الساعة الثانية بعد الظهر اجتمع أولئك الذين كان يحق لهم أن يشهدوا الاحتفال، في الموعد المحدد فوق المقبرة، كان هنالك إحساس من الترقب يسيطر على المشهد، فقد رتبت الكراسي في الغرفة الأمامية وقد غطِّي التمثالان الطبيعيان اللذان كانا يحرسان المدخل بألواح خشبية ووضعت حبال من الأضواء الكهربائية في الكهف ووقف كارنرفون ومعه العالم أرثريس على منصة قرب البوابة وهما يتناوبان أخذ الحجارة التي كان يقتلعها كارتر من الجدار بواسطة مطرقة وإزميل. وبعد أن فتح ثقباً في الحائط بقدر حجم رأس طفل دفع كارتر بمصباح كهربائي في الظلمة؛ عندها لمع الذهب ببريق أخّاذ: جدار من الذهب!! نعم من الذهب الخالص، بقدر ما تستطيع العين أن ترى.

وبعد إزالة بضعة أحجار أخرى، أصبح من المستطاع حلّ لغزّ الجدار الذهبي، فقد كنا في مدخل مقصورة مدفن الملك الحقيقية وذلك الذي اعترض طريقنا كان

جانباً من جوانب ضريح كبير موشى بالذهب بني لتغطية وحماية الناووس. وقد كـان سقوط حجر واحد يمكن أن يحدث ضرراً بالغاً لسطح الضريح الرقيـق النـاعم وهكـذا بعْدَ أن أصبح الثقب واسعاً بشكل كاف عملنا احتياطات إضافية لحماية الضريح ذلـك بوضع حصير على القسم الداخلي من المدخل وتدلّى هـذا الحصير علـى المدخل وقد استغرق العمل ساعتين من الزمن لتنظيف السد، وفي إحدى النقـاط عندمـا كنـا قـرب القعر كنا مجبرين على تأخير العمل حتى استطعنا جمع الخرزات المبعثرة من عقد كـان جلبه اللصوص من المقصورة وسقط منهم عند العتبة.

كان هوارد كارتر مرتدياً طقماً أسود تكريماً لهذه المناسبة، وبعد أن أصبح الثقب واسعاً كفايـة بحيـث يسمح لدخـول رجـل، عندهـا نـزل كـارتر إلـى مقصـورة المدفـن الرئيسية وتبعه اللورد كارنرفون ولاكو.

كتب كارتر يقول: لقد كان من المسلم به أن هذه هي مقصورة القـبر وهـي التـي وقفنا في داخلها، فهنالك كان يشمخ فوق رؤوسنا أحـد الأضرحـة المذهبـة التـي كـان يرقد تحتها الملوك. وكان مبنى هذا الضريح هائلاً فقد كان طولـه 17 قدمـاً وعرضـه 11 قدماً وارتفاعه 9 أقدام وقد وجدنا فيما بعد أنه كان يملأ مساحة المقصورة وكان هنـالك مسافة قدرها قدمان تفصل الضريـح عـن جدران المقصـورة مـن الجـهات الأربـع بينمـا كانت قمة الضريح ذات إفريز «في قمته يصل إلى سقف المقصورة تقريباً».

هل وصل اللصوص إلى المقبرة أولاً يا ترى؟ هذا هـو السؤال الملـح الـذي كـان يشغل بال كارتر فكتب يقول:

«هنا وفي النهاية الجنوبية حيث كانت الأبواب العظيمة مغلقـة ولكنـها لـم تكـن مختومة، وهذا من الممكن أن يجهز الجواب على سؤالنا وقـد سـحبنا المزاليـج بشـغف وفتحنا الأبواب وهنالك فـي الداخـل وجدنـا ضريحـاً آخـر بـه أبـواب مدربسـة وعلـى المزاليج ختم لم يمس.

لاشك أن اللصوص لم يجتازوا مسافة أبعد، فقد كان هنالك أشياء مخفيّة خلف الباب لم يرها أي إنسان منذ موت فرعون».

يقول كارتر: «كنت أظن أنه في تلك اللحظة لم نكن ننوي كسر الختم، لأن ذلك يبعث شعوراً بالإثم من هذا التطفل على حرم الفرعون، كان يخيم علينا جميعاً شعور بالرهبة لدى فتح الأبواب، وقد علا هذا الشعور بتأثير وجود غطاء النعش الكتاني المزخرف بوردات ذهبية.. لقد شعرنا أننا في حضرة الملك الميت، وعلينا أن نحيطه بالاحترام والتبجيل، وكنّا نتخيل أن أبواب الضريح تفتح واحداً بعد الآخر حتى أظهر الباب الفرعون نفسه. وهكذا انسحبنا بهدوء ونظام وأعدنا إقفال الأبواب الكبيرة التي كانت تدور على محور».

هذه هي كلمات رجل كان شاهداً ومكتشفاً لزاوية من زوايا التاريخ.

لقد كانت الاستعدادات لإخراج الفرعون الميت تظهر بأنها صعبة التنفيذ. وهكذا فقد ردم المدخل المؤدي إلى المقبرة مرة ثانية بالأنقاض ثم ذهب اللورد كارنرفون بسيارته راجعاً إلى القاهرة حيث استأجر شقة في فندق الكونتنتال لإقامة المنقبين. وأما كارتر فقد بقي في الأقصر.

موت اللورد كارنرفون:

في أوائل نيسان وردت إلى كارتر برقية مفادها: «اللورد كارنرفون قد انتابه مرض خطير ولكن كارتر لم يعر تلك البرقية اهتماماً كبيراً، ولكنه بعد أن استلم برقية أخرى تقول: اشتدت وطأة المرض على اللورد كارنرفون (حمى عالية)»: عندها توجه كارتر تواً إلى القاهرة.

بدأ المرض بشكل غريب «إنني أشعر بالجحيم» قال اللورد الذي كان قد بلغ السابعة والخمسين من العمر، وهو يتناول فطوره في صباح أحد الأيام وكانَتْ درجة حرارته قد وصلت إلى / 104/ فهرنهايت (40 درجة مئوية) وكان يرتجف من نوبات القشعريرة. وفي اليوم التالي تحسنت حالته، لكن سرعان ما عادت

الحمى العالية واستمر الحال على هذا المنوال اثنَيْ عشر يوماً. فقرر الأطباء أن اللورد كارنرفون كان قد جرح وجهه أثناء الحلاقة بحيث انفتح جرح مغلق قديم ولكن الحقيقة أن هذا التفسير لم يكن كافياً لتبرير بقاء الحمى مدة طويلة بهذا الشكل.

ويعلق ابن اللورد الأكبر على الحادث بقوله: «عندما وصلت إلى القاهرة أسرعْتُ إلى فندق الكونتنتال فوجدت والدي فاقد الوعي وكان بجانبه هوارد كارتر ووالدتي، ثم أيقظوني في الساعة الثانية إلا عشر دقائق بعد منتصف الليل عندما أتت الممرضة لتقول لي إن والدي قد توفّي. وكانت والدتي معه فأغلقت عينَيْهِ. وحالما خطوت داخل الغرفة انطفأت جميع الأنوار الكهربائية فأشعلنا الشموع ثم أخذت يد والدتي وبدأت أصلي».

وكتبت أخت اللورد كارنرفون في مذكراتها تقول:

«كان اللورد كارنرفون تعباً جداً فقد كان يقول: «إنني أسمع النداء وإنني أستعد».

لم يكن هنالك أي تفسير لانقطاع التيار الكهربائي في القاهرة في تلك الليلة فقد سئلت شركة الكهرباء ولم تعط أي تفسير معقول للانقطاع المفاجئ للتيار ثم رجوعه ثانية.

وقد روى ابن اللورد كارنر حادثاً غريباً آخر: «لقد ماتَ والدي قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت القاهرة. كما علمت فيما بعد أن شيئاً غريباً حدث في مدينةِ هايكلير في إنكلترا حوالي نفس الوقت أي حوالي الساعة الرابعة بتوقيت غرينتش وذلك أن كلبتنا الصغيرة التي كان يحبها والدي والتي كانت قد فقدت مخلبها الأمامي في حادث أخذت فجأة ودون مقدمات تنبح ثم وقفت على قائمتيها الخلفيتين ثم سقطت وقد فقدت الحياة»...

أحجية من الألف الثاني من قبل الميلاد:

لأول مرة أصبح العلماء والصحفيون يتحدثون بجد عن لعنة الفراعنة وعن الرقيم الذي كان قد وجد وفقد. وهنالك كثير من الرجال الذين تورطوا في هذا العمل قد فقدوا. كما بدأ كثير من مساعدي كارنرفون يموتون وبذلك انتشر الذعر.

كان كارتر قد طلب من عالم الآثار الأميركي آرثر ميس أن يساعد في فتح القبر وكان هذا قد نزع آخر قطعة من الجدار الذي سد المدخل إلى المقصورة الرئيسية، لقد شكا هذا الرجل من الإعياء المتزايد بعد وفاة كارنرفون وأخيراً استغرق في سبات عميق لم يستطع الأطباء أن يشخصوه وأخيراً توفي في نفس الفندق الذي كان قد توفي فيه اللورد كارنرفون.

ولقد كانت وفاة كارنرفون سبباً في قدوم أحد محبي التاريخ المصري وهو جورج جولد وهو ابن أحد الممولين الأميركيين الكبار، فسافر في جولة من القاهرة إلى الأقصر ثم إلى وادي الملوك حيث أراه كارتر الاكتشاف المثير لضريح الفرعون. وفي الصباح التالي أصيب جولد بحمًّى عالية مات على أثرها في المساء. ولم يستطع الأطباء أن يشخصوا أولاً ذلك المرض المميت ولكنهم استنتجوا أن سبب الوفاة كانت من الطاعون الدبلي وهو (مرض سببه ورم في الغدة اللمفاوية).

استمرت الوفيات الغامضة دون انقطاع إذ بينما استمر كارتر في استكشاف آثار المقبرة قدم رجل صناعي بريطاني وهو (جول وود) إلى موقع القبر وبعد الزيارة رجع إلى إنكلترا بحراً ولكنه توفي بالحمى العالية. وأما ارتشبولد دوجلاس ريد الاختصاصي بالأشعة السينية الذي كان أول من قطع الخيوط حول جسم مومياء الفرعون الميت وذلك لكي تصور الجثة تحت الأشعة السينية، هذا الرجل بدأ يقاسي من نوبات الوهن والضعف وبعد وقت قصير توفي عام 1924 إِثْرَ رجوعه مباشرة إلى إنكلترة.

ولم يأت عام 1929 حتى توفي اثنان وعشرون شخصاً من الذين كانت لهم علاقات مباشرة أو غير مباشرة بتوت عنخ أمون ومقبرته. كل هؤلاء توفوا قبل أوانهم

وقد كان ثلاثة عشر منهم قد اشتركوا في فتح القبر وبين المتوفين كان الأستاذان دنلوك وفوكرات وعلماء الآثار غاري دافس وهاركنس دوغلاس ديري والمساعدون أستور وكالندر.

ولقد توفيت زوجة اللورد كارنرفون عام 1929 وقيل: إنَّ سبب الموت كان لدغة حشرة. وأما أمين سر كارتر وهو رتشارد بيثيل فقد مات في تلك السنة أيضاً. ولقد كانت الظروف التي سبقت موت بيثيل هذا أغرب ظروف في سلسلة الحوادث المشؤومة المنحوسة هذه. ففي صباح أحد الأيام وجد بيثيل هذا ميتاً في فراشه نتيجة لقصور قلب احتقاني ولكن عندما علم والده بمصرع ابنه ألقى بنفسه من الطابق السابع في بيته في لندن وبعد ذلك وفي أثناء مرور الجنازة في طريقها إلى المقبرة دهست عربة الموتى ولداً صغيراً.

إن الموت سيقضي بجناحيه على أي شخص يحاول أن يعبث بهدوء الفرعون:

على ماذا تدل هذا اللعنة يا ترى؟ هل يستطيع إنسان مهما بلغت قدرته أن يؤثر على حياة الآخرين، أو أن يوقف حياتهم كلياً؟ هل كان هنالك أساليب لمثل هذه الأعمال في مصر القديمة، ربما اكتشفها بعض العلماء الموهوبين ونسيت بعد ذلك؟ هل كان هنالك سموم أو كائنات تسبب الأمراض قادرة على الاحتفاظ بقدرتها عبر آلاف السنين والتي كان الفراعنة الذين يتوقون إلى الخلود يأملون أن يحموا بواسطتها أجسامهم المحنطة والمذهبة من عبث البشر؟ أم هل كان هنالك إشعاعات مميتة تصدر من بعض العناصر الكيماوية النادرة أو المعادن التي كان يعرفها أولئك، والتي استعملوها لحماية قبورهم الصخرية الضخمة يا ترى أم أن هذه الوفيات الغريبة المتداخلة بعضها ببعض هي من قبيل المصادفات فحسب؟!